العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

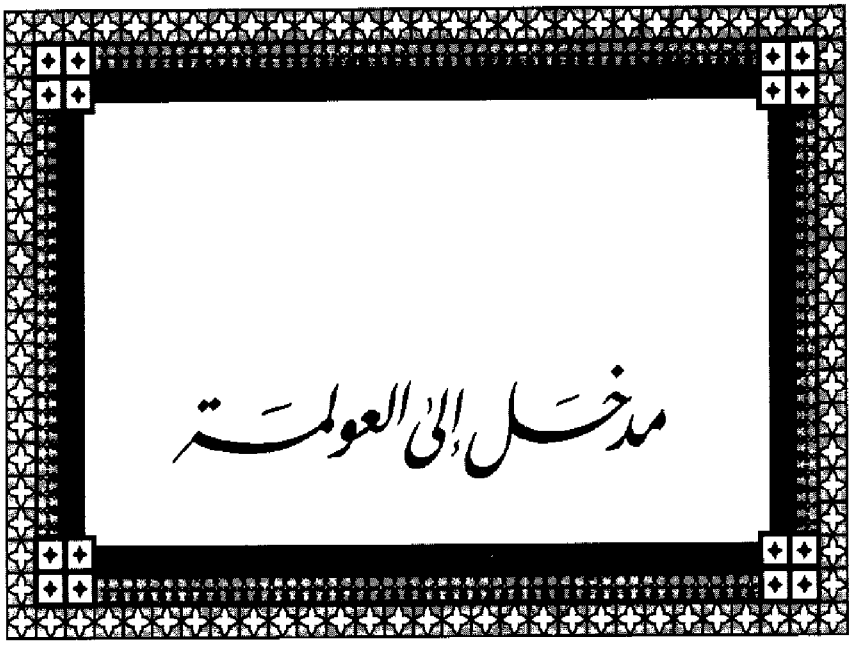

أ. رنا موسى خالد

1 ـ نحو تحرير المصطلح:

بالرغم من شيوع استخدام مصطلح العولمة في البلاد العربية وتعميماته التي طالت جل مناحي الحياة البشرية السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، إلا أنه ليس بوسعنا هنا التغاضي عن كون هذا المصطلح مجرد مصطلح مترجم تمّ نقله عن مصطلح آخر شاع استخدمه عند الغرب ألا وهو مصطلح Globaliziation أو Globalism، ولذا فلا يزال هذا المصطلح يتسم بشيءٍ من الغموض وعدم الاستقرار وذلك على النقيض من المصطلحات العربية الأخرى الراسخة المكتملة البنيان والتي تزخر بها أمهات المعاجم اللغوية العربية.

إن عدم الاستقرار هذا يتجسد في اتجاهين أولهما: عدم الاتفاق على استخدام مصطلح موحد لتمثيل هذه الظاهرة، أي ظاهرة الـ Globalization إذ يُترجم تارةً إلى عولمة، وتارةً إلى كوننة أو كونية، وتارةً ثالثة إلى كوكبة أو كوكبية، هذا إضافة إلى طفو بعض المصطلحات الأخرى على السطح مثل أمريكية أو عالمية.

أما الاتجاه الثاني فيظهر في عدم تناول هذا المصطلح في معاجم اللغة العربية كمفردة قائمة بذاتها ذات جذر ثابت، أو تفصيله من حيث الاسم أو الفعل وصيغ الجمع والتطبيقات المختلفة له كما تم التعارف عليه.

إن ما تقدم يفضي بنا إلى طرح التساؤل التالي: هل يمكن أن نعزو الإشكالية السابقة إلى لغة قاصرة مفتقرة إلى وجود تأصيل لمثل هذا المصطلح، أم أن الإشكالية واقع اجتماعي لم يُكتَب له السبق في إفراز هذا المصطلح وإبداعه؟ وهل يتسنى لنا البحث في ثنايا اللغة العربية عن مصطلح ما بمعزل عن الواقع أم أنه هناك علاقة وطيدة ومستمرة بين كلٍ من الواقع واللغة لا يمكن احتواء أحدهما مفصولاً عن الآخر؟

إن الإجابة عن هذه التساؤلات يلزمنا أولاً تحديد ما نعنيه بالواقع، فإذا عرفنا الواقع بأنه «وجود الشيء كمقابل أو كنقيض لعدم وجوده»[1]، فإن اللغة هنا تصبح هي الأداة المعبرة عن تلك الأشياء الموجودة، فإذا انعدم وجود الشيء انعدم بالمقابل وجود لغة للتعبير عنه. إذا تكمن في الواقع تلك الأشياء الحقيقية الفعلية الموجودة أو المُعاشة التي «يمكن معاينتها بالملاحظة وبالاختبار وبالدرس الإحصائي بل يمكن كذلك كشف القوانين التي تسيرها أو تؤدي إلى ترابطها»[2].

اللغة إذاً مرآة تعكس هذه الصورة الثابتة المستقرة عن الواقع وإلا لما أمكن صياغة لغة غنية بمفرداتها.

---

(1) الموسوعة الفلسفية العربية (الاصطلاحات والمفاهيم)، المجلد الأول، إعداد لجنة من الأساتذة والباحثين، بيروت: معهد الإنماء العربي، 1986، ص 829.

(2) المصدر السابق، ص 830.

إن ما نشهده من عدم الثبوت على ترجمة موحدة لـ Globalization وكذلك عدم تأصيل المصطلح لغوياً قد يُظهر اللغة العربية ولأول وهلة كأنها تعاني من نقيصة القصور عن احتضان هذا المصطلح وإلحاقه بعائلة الضاد العريقة، إلا أن اللغة تقتضي مسبقاً وجود ما يمكن التعبير عنه في الواقع بواسطة اللغة، فاللغة لا تبدي تجاوزاً لما هو موجود في الواقع بل إنها تقف عنده ولا تتجاوزه. اللغة ليست كياناً مفصولاً عن الواقع، ولذا يستحيل فهمها بمعزلٍ عنه، فإذا عجز الواقع أو تأخر عن إنتاج مصطلح، هنا تنضح حركة الترجمة والنقل عن الغير الأمر الذي يترتب عليه ظهور الاجتهادات والمحاولات الكثيرة التي تختلف معها تصورات الباحثين حول الكيفية التي يمكن بها مراعاة المصداقية في نقل المصطلحات عن أصولها التي أوجدتها،ومحاولة تبيئة المصطلح.

الإشكالية على هذا ليست إشكالية لغة بقدر ما هي إشكالية واقع يعجز عن الإبداع والانتاج والمواكبة، هناك إذاً واقع متخلف وآخر متقدم وليس هناك لغة موصوفة بأنها متقدمة أو متخلفة، فاللغة لا تعدو كونها تابعة وخاضعة للواقع ولقوانينه، بل إنها تسير بموجب الواقع ولا تتخلف عنه، ولذا فمعاجم اللغة تكتفي بإيراد المصطلح وتطبيقاته المختلفة بدقة حتى وإن ندر استخدام هذه التطبيقات.

نعود للقول مجدداً إن العولمة كمصطلح ليست مُنتجاً عربياً خالصاً بل هو منقولٌ عن المصطلح الغربي، لكن ذلك لا يعني أن استخدامنا له يقف عند عتبات الترجمة والنقل فقط، فكما أشرنا سابقاً أن العولمة تتسم بأنها ذات تأثيرٍ بعيد المدى على مناحي الحياة الإنسانية بجل أبعادها، ولذا فقد آثرنا البحث في ذلك مبتدئين بالدراسة اللغوية للمصطلح في اللغتين العربية والإنكليزية، مع محاولة فك التراكيب الاصطلاحية المتداخلة التي تظهر في أحايين كثيرة مترافقة مع مصطلح العولمة.

2 ـ المحددات اللغوية للمصطلح:

أولاً ـ في اللغة العربية:

لم ينل مصطلح (العولمة) بعد حظه الكامل من الاستقرار في معاجم اللغة العربية وذلك بالرغم من شيوع استخدامه حرفياً كما تمت الإشارة إلى ذلك، وباستثناء جهود بعض الباحثين في هذا المجال فإنه لم يرد حتى الآن تأصيل لغوي عربي له في معاجم اللغة العربية أو على الأقل تبيان للمسوغات التي دفعت ببعض الباحثين إلى استخدامه على هذا النحو الآمر أو الإلزامي، إلاّ أن البحث في فلسفة العولمة وتحليل مضمونها عبر الزمنِ يُلزمنا أولاً بالعودة إلى مبادئ اللغة العربية الأولى وأصولها التي لا غنى للباحث عنها في الكشف عن كنه المصطلحات وتوضيح معانيها الكامنة فيها، فالمصطلح كظاهر لا يتضح إلاّ بالمعنى ككامن فيه، ولذا فقد اضطررنا إلى الدخول في سلسلةٍ طويلةٍ من الأفعال والاسماء المرفقة بأوزانها، مروراً بالفاعل والمفعول به الذي وقع عليه الفعل حتى نصل إلى تبرير منطقي للصورة التي تُرجم عليها المصطلح وليس على غيرها، فالمصطلح (عَولَمَة) هو اسمٌ، والفعل منه هو (عَولَمَ)، فإذا أردنا أن نجعل لكليهما وزناً شأنهما في ذلك شأن باقي المسميات في اللغة العربية فإننا نجد أن الاسم هو على وزن (فَوعَلَة) أما الفعل فهو على وزن (فَوعَلَ)، إلاّ أنه أول ما يتبادر إلى الذهن أن هذا المصطلح (سيانٌ في ذلك الاسم والفعل) هو عبارة عن (فعل أمر) ملزم أو إجباري، ولتبسيط هذه الفكرة نقول إن الفعل (عَلِمَ) على سبيل المثال لا يدل على ما يدل عليه الفعل (عَلَّمَ)، إن اختلاف دلالتهما مرده إلى أنَّ الأول يحدث بشكلٍ اعتيادي وتحت ظروف طبيعية، أما الثاني، فيحدث بشكلٍ إجباري لأنه يستدعي بالضرورة وجود طرف آخر يكون هو الأقوى أو الأفضل أو الأكثر علماً لكي يقوم بعملية التعليم هذه. وهكذا هو الحال مع مصطلح (عولمة) الاسم الذي ينحدر من (عولم) الفعل، فهما يقتضيان وجود طرف آخر يقوم بإنجاز هذه العملية (أي عملية العولمة). من هنا يمكن أن نستشف أنّ التوجه الخفي من طرف (المُعَولِم) إلى الآخر (المُعَولَم) أو المستهدَف بالعولمة، هو توجهٌ بغية تحقيق السيطرة التامة أو فرض نموذج ما باستخدام القوة.

إن ما تقدم أعلاه لا يزال في حاجة إلى البحث، وقد ارتأينا في هذا الصدد أن ذلك سيكون أيسر إذا قمنا بدراسة مصطلح العولمة لغوياً مع الإشارة إلى مصطلح آخر كثيراً ما يظهر مترافقاً معه في الدلالة ألا وهو مصطلح (العالمية)، وبالرغم من اختلاف المصطلحين فكرياً (كما سنأتي على تبيان ذلك في حينه) إلاّ أنهما ينحدران من عائلة لغوية واحدة، أي من الفعل (عَلِمَ)، فإذا اعتبرنا أن (الواو) في الفعل (عولم) هو حرفٌ مزيد وليس من حروف الفعل الأصلية، فإن ما يتبقى لنا في هذه الحال هو الفعل (عَلِمَ). بذلك يمكن الجزم بأن (عَلِمَ) هو جذرٌ مشترك بين (عولمة) و (عالمية)، ولتوضيح ذلك يذكر أحد معاجم اللغة العربية في مادة ع لِ م: «عَلِمَهُ عِلْماً: عَرَفَه»[3]، ومن هذا الفعل تنحدر مصطلحاتٌ أخرى مثل عالِم، وعليم، وعلماء، وعُلاَّم أو عُلاَّم، والعلاّمة، والعالَم أي الخَلقُ كُلُّهُ، أو ما حواهُ بَطن الفَلَكِ[4].

إن مصطلح العالَم ـ وهو ما يُعد نهاية التسلل الطويل للجذر (عَلِمَ) في معاجم اللغة العربية ـ ، هو بيت القصيد وهو ما يهمنا تحديداً في هذا الموضوع، فإذا كان العالَم هو كل الخلق، أو هو «كل الطبيعة المحيطة. . . في الزمان والمكان والتي تضم التنوع. . . للأشكال المختلفة كيفياً للمادة»[5] فإننا بناءً على ذلك يمكن أن نصف الشيء أو الشخص بأنه عَالَمي أي على مستوى هذا العالم الحاوي للزمان والمكان والموضوع، وبذلك يصبح مصطلح (عالمي) نعتاً لكل ما يخرج بذاته عن الحدود الضيقة التي وُجِد في داخلها إلى العالم كله، ومن ذلك يظهر مصطلح (العالمية) كاسم. إن الشيء الذي كانت المعرفة به تقتصر على حدود ضيقة النطاق (الجماعة أو المجتمع) معينة، من هنا نكون قد وضعنا أنفسنا على أولى درجات الاختلاف ـ من حيث اللغة ـ بين ما ينزعُ نحو العالمية ليتسم فيما بعد بأنه عالمي، وبين ما ينزعُ نحو العولمة ليكون حينئذ معولماً.

---

(3) الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1983، ص 435.

(4) المصدر السابق، ص 435 ـ 436.

(5) الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين. ((ترجمة سمير كرم))، بيروت: دار الطليعة، الطبعة الثالثة، 1981، ص 289.

إذاً فالجذر اللغوي (عَلِمَ) هو جذرٌ مشتركٌ بين كل من (العولمة) و (العالمية)، ومن المصطلح عَلم إلى نهاية التسلسل الذي سبق ذكره آنفاً وحتى نصل إلى عَالَم وعَالَمي ومن ثَمَّ عالمية، فإنه يتسنى لنا أن نجد مكاناً لمصطلح جديد يفرض نفسه بفعل المتغيرات الجديدة وهو مصطلح العولمة، وبالعودة إلى صيغة القسر والإلزام التي اتضحت لنا بعد وزن الاسم والفعل وكذلك إلى التعريف اللغوي للعالم بأنه الخلق كله، فإنه يصبح بمقدورنا أن نفسر مصطلح العولمة لغوياً بأنه الاتجاه نحو تصيير العالم إلى عالمٍ آخر أو تغيير أو إعادة تنظيمه على نحوٍ ما.

ثانياً ـ في اللغة الإنكليزية:

العولمة مصطلح عربيٌ منقول عن المصطلح الإنكليزي Globalism أو Globalization، وأصل الكلمة Globe، وهو اسمٌ تفسره معاجم اللغة الإنكليزية بأنه شيء دائري يأخذ شكل الكرة، كما يُفسَر ذات المصطلح بأنه الأرض Earth، والعالم World[6].

ومن ذات الاسم ينحدر الفعل Globalize، بمعنى يكوِّر، ويعولِمْ، ومن ثَمَّ تأتي الصفة Globe وهو ما يُفسَّر بأنه كل ما يأخذ شكل العالم أو الأرض [7] أو ما يتصف بأنه «عالمي الانتشار؛ عالمي النطاق»[8].

أما الاسم فهو كما أشرنا أعلاه Globaliztion أو Globalism، والفرق بين هذين الاسمين هو في النهاية التي ينتهي بها كل اسم والتي تُعرَف في قواعد

---

(6) See:

a- Hornby,A.S., Oxford Advanced Learner Dictionary of Current English.Britain: Oxford University press, 25th ed, 1987, p. 365-366.

b- Webster s New English Dictionary. Pocket Edition. Beirut: Librairie Du Liban, 1982, p. 213.

c- Clarende L. Barnhart, Thorndike-Barnhart Handy Pocket Dictionary. London: The English Universities Press LTD. p. 204

(7) Ibid. P.204.

(8) منير البعلبكي، المورد. بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة عشرة، 1985، ص1075.

الغة الإنكليزي بـ اللاحقة Suffix وهي عبارة عن «مقطع يُضاف إلى آخر اللفظة بغية تغيير معناها أو تشكيل لفظة جديدة»[9]، فالفعل إذاً هو Globalize، وتحويلة إلى اسم يستدعي إضافة اللاحقة ism ـ أو اللاحقة tion ـ، إلا أنه ينبغي لنا الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من كون هذين المقطعين يشتركان في تغيير إعراب الكلمة من فعلٍ إلى اسم إلاّ أنهما يختلفان في أن اللاحقة ism ـ تُضاف إلى الفعل فتجعله اسماً يحمل في ذاته الدلالة على مذهب محدد او مبدأ أو حركة: Specific dotrine, principle or movememt[10].

من هنا نستنتج أنه ثمة فرق بين استخدام مصطلح العولمة كمصطلح عادي أو كمادة للكتابة، وبين استخدام ذات المصطلح عند وضعنا لمذهب أو صياغتنا لمبدأ كمؤشرات لبناء تنظير معين.

ولا يختلف مفهوم المصطلح في اللغة الإنكليزية عن نظيره في العربية من حيث احتوائهُ على صيغة الإلزام أو الإجبار، وكما سبق لنا القول بأن الشيء الذي يكون عالمياً بالإرادة ليس كنظيره الذي يتجرد منها أو يفتقر إليها، ولذا فإن ما ينتج عن عملية الـ Globalization ليس هو ذاته ما يمكن أن ينتج عما هو World-wide بالرغم من أن كليهما يجعل من ذات الشيء على مستوى العالم.

ويبين الجدول الماثل أدناه المصطلحات العربية الخاصة بـ (العولمة) و (العالمية) مرفقةً بما يقابلها في اللغة الإنكليزية:

جدول رقم (1)

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الأنكليزية
العالم	World
العالمية	World-wide
العولمة	Globalism-Globaliztion
يعولم	Globalize
مُعَوْلَم	Globalized

(9) المصدر السابق، ص 926.

(10) Hornby, A.S., Oxford Advanced Learner Dictionary of Current English. Britain: Oxford University press, 25th ed, 1987, p.1016.

3 ـ مصطلحات ودلالات (فك إشكالية التداخل):

أولاً ـ العالمية:

كنا قد وضعنا حدوداً فاصلة بين العولمة والعالمية في معرض الحديث عن التحديد اللغوي للمصطلح، فقد بينا أن الجذر اللغوي لكليهما واحد ألا وهو الفعل (عَلِمَ) والذي أمكن الاشتقاق منه العديد من المصطلحات الأخرى ذات العلاقة حتى توصلنا إلى صياغة مصطلحَيْ (العولمة) و(العالمية).

إلاَّ أننا قد لمسنا من الخلط في استخدام هذين المصطلحين كمترادفين أحدهما للآخر، كما وجدنا أن حديث بعض الباحثين والمفكرين عن المجتمع العالمي يتسم بذات السمات التي تتبع الحديث عن المجتمع المعولَمْ، لذا فقد آثرنا الفصل بين هذين المصطلحين لما لذلك من أهمية في تيسير استيعاب مضامين الأفكار وعدم الوقوع في الزلل لدى التعبير عنها. وبناءاً على ذلك نقول إنه إذا كانت العولمة ـ كما سبق وأن بينا ـ تستهدف تغيير وجه العالم أو إعادة تنظيمه سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ونفسياً من خلال فرض منهجية جديدة في التفكير عليه، فإن العالمية هي شيءٌ آخر مغاير لذلك تماماً، فصحيحٌ أن العولمة والعالمية كلاهما يتشابهان في وضع الشيء على مستوى العالم والخروج به من أطر الحدود المجتمعية المحلية الضيقة النطاق، لكنهما يتباينان أيضاً في الغاية التي يسعى كلٌ منهما إلى بلوغها. إذاً ثمة سمة سائدة ومشتركة بين المصطلحين تتمثل في الخروج بالشيء من أطره المحدودة ووضعه في متناول العالم بأسره، ومع ذلك يبقى موصوفاً بأنه عالمي عند تناولنا للعالمية، وموصوفاً بأنه معولَمْ عند تناولنا للعولمة.

ولتبيُّن ملامح هذا الفرق نبدأ بالتعريف التالي للعالمية التي يرى فلاح كاظم بأنها «تفتّح على العالم، وعلى الثقافات الأخرى، مع الاحتفاظ بالخلاف

الأيديولوجي، أما العولمة فهي نفيٌ للآخر، وإحلالٌ للاختراق الثقافي محل الصراع الأيديولوجي»[11].

إن التعريف السابق يبرز الفروق الكامنة في الدلالة بين مصطلحي (العولمة) و (العالمية)، وقد يتراءى للبعض أن العالمية بهذا المعنى مرادفة لانكفاء المجتمعات على ذواتها والانغلاق عليها عند احتفاظها بالخلاف الأيديولوجي، الأمر الذي يمكن أن يقود كل مجتمع إلى العيش في عزلة فردية، لكن ذلك مغاير لحقيقة ما تصبو إليه العالمية،فالعالمية تتيح لكل مجتمع فرصة الاحتفاظ بخصوصيته والتمسك بها لكنها تمكنه في آن واحد من التفتح على ثقافة المجتمعات الأخرى مع الاحتفاظ بالخصوصية لكليهما، هنا لا يسلب مجتمعٌ آخر هويته، لا ينظر أحدهما إلى الآخر على أنه ضد يمكن أن يعيق تطوره أو تقدمه، فانعزال المجتمع وتقوقعه داخل ذاته يحدث إبان شعور بخطر الإخضاع أو التملك أو محاولة فرض أسلوب ما عليه يمكن أن يوجهه إليه مجتمعٌ آخر، وكمحاولةٍ للدفاع قد يحاول هذا المجتمع حماية ذاته بعزل نفسه عن العالم، وذلك هو الانعزال، أما العالمية فلا تحمل في مضامينها الانعزال، بل إن فيها التفتح على العالم، وفيها أيضاً تأكيدٌ للمجتمع على ذاته، فكل مجتمع قادر على رسم مصير مختلف ومتميز له، وهو قادر أيضاً أن يجعل من ذاته محوراً لا هامشاً، فلا تتحقق سعادة المجتمع أو تتأكد هويته بتماهي هوية المجتمعات الأخرى أو اضمحلالها، وعليه، فالعالمية هي انفتاح المجتمع على العالم باعتباره جزءاً منه مع احتفاظه بسيادته وخصوصيته الثقافية والاجتماعية.

العالمية إذاً تفرز مجتمعاً عالمياً يرى فيه بركات أنه نوع من المجتمعات يفكر فيه الناس «بشكل عالمي، ويؤمنون بوحدة الجنس الإنساني، وترابط مصيره، وينشدون الضغط على صانعي السياسة، لإنتاج سياسات مواكبة للسلام

(11)فلاح كاظم المحنة، (العرب والعولمة)، مجلة دراسات، مصراته: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، العدد الرابع، 1999، ص 40.

والتحرر الاجتماعي، والتنمية الاقتصادية والثقافية المتوازنة لكل الشعوب، مع احترام التعددية الثقافية والحضارية في الوقت نفسه»[12].

للعالمية دلالة إيجابية بناءً على المعطيات السابقة، وبموجبها تكتسب المجتمعات الحق في الانفتاح على العالم والمشاركة في كافة المناشط السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع الاحتفاظ بسيادتها وهويتها القومية وخصوصيتها الثقافية والاجتماعية، أمّا العولمة فتقومُ بطمس الخصوصية وإحلال قيم أخرى بديلة هي قيم العولمة، ذلك هو جوهر الفرق بين العولمة والعالمية، وهّذا يتفق مع ما يراه الجابري في أن العالمية «إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراقٌ لها وتمييع»[13].

إن فلسفة العالمية مبنية في الواقع على الإقرار بوجود الاختلافات التي تجعل لكل مجتمع خصوصية، إذاً العالمية لا تستند في بنائها لفلسفتها على تذويب الاختلافات بين المجتمعات أياً كان نوع هذه الاختلافات وخَلقَ مجتمع واحدٍ كما ترنو إلى ذلك العولمة، وذلك في اعتقادنا أقرب إلى الواقع والصواب، فوجود الاختلافات امر طبيعي بل وحقيقة مؤكدة لا مفر منها، ولنتمعن في الآيات الكريمة التالية حيث يقول تعالى: : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[14] وكذلك قوله تعالى: : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[15].

إذاً الاختلاف ليس عيباً لأنه لو كان كذلك لخلقنا الله تعالى: متماثلين في كل شيء فهو الطبيعة التي جُبِل عليها البشر منذ بدء الخليقة. والاختلاف وعاء كبير يمكن أن يتسع ليشمل الاختلاف في الأديان والعقائد والأعراف والأفكار

---

(12) بركات محمد مراد، ظاهرة العولمة (رؤية نقدية). العدد 86، ذو القعدة، 1422، السنة الحادية والعشرين.

(13) محمد عابد الجابري، (العولمة والهوية والثقافية)، مجلة المستقبل العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 228، 1998، ص 17 ـ 18.

(14) سورة الروم، الآية: 21.

(15) سورة هود، الآية: 118 و119.

والقيم والثقافات والعادات والتقاليد والفنون والغايات والوسائل والاستعدادات والقدرات. والاختلاف ليس هو التباين، ففي الاختلاف تشابه وفي التشابه اختلاف، فالطرفان المتشابهان من زاوية يمكن أن يكونا مختلفين من زاوية أخرى،والعكس جائزٌ إيضاً، لكن الطرفين المتباينين لا يمكن أن نجد بينهما فسحة للتشابه، الاختلاف إذاً هو قرين التشابه، وحيثما وجدنا التشابه وجدنا معه الاختلاف، ولذا فقد تتشابه المجتمعات في الأفكار وتختلف في طرق التعبير عنها، وقد تتشابه في أن لكل منها ديناً لكنها تختلف فيمن إليه تتوجه بالعبادة والتقديس، وقد تتشابه غاياتها وتختلف الوسائل المؤدية إلى تحقيق هذه الغاية. هكذا هي طبيعة البشرية وهذا هو الأساس الذي توطن عليه العالمية ذاتها. وهذا هو تحديداً ما يجعل كل مجتمع في حالة تقدير واعتبار للمجتمعات الأخرى مما يؤدي بها إلى إثرائها وإغناء هويتها عوضاً عن محوها.

العالمية إذاً تعي أنه ثمة اختلافات قائمة بين المجتمعات وهي اختلافات لا يمكن تجاوزها ولكن لا يمكن الاستفادة منها وتوظيفها، كما يمكن أن تكون دافعاً إلى تعمير الكون، وفي ذلك يقول سيد الحسيني. . .«إن كلاً منا يعرف تماماً بأن الله سبحانه وتعالى: خلق الناس بعقول ومدارك متباينة، إلى جانب اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتصوراتهم وأفكارهم، وكل ذلك عادة ما يفضي إلى تعدد الآراء والأحكام والمواقف. . . الأمر الذي يؤكد بدوره أيضاً على دلالة لا لبس فيها، هي إعمار الكون ومنها الأرض وما عليها من رطب يابس وحي وجامد، ولم يكن ليتم كما هو حاصل لو أن البشر خلقوا سواسية في كل شيء، ذلك أن نتائج أفعالهم وممارساتهم وصنعتهم ومحصولهم لم يكن بالإمكان أن يأتي بمثل هذا التنوع المشهود والتمايز المعروف، ولخلت الأرض وما عليها من كل أشكال التزاحم والتنافس والتعارض الذي نعيشه بكل جوارحنا على امتداد طول حياتنا وعرضها»[16].

(16) غريغوار منصور مرشو وسيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر. دمشق: دار الفكر ـ بيروت: دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، 2001، ص 94 ـ 95.

وهذه الاختلافات هي التي تصنع الخصوصية، فالخصوصية هي أن تمتلك أسلوباً مميزاً لك من غيرك يجعلك دائماً منفرداً وأن تمتلك ذلك الطابع الخاص الذي يرسم خطاً فارقاً بينك وبين الغير، ومع أن «الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم إلاّ أنه لم يخلقة نسخة واحدة كأنه ورق طابعة، فالبصمة للفرد الواحد تختلف عن البصمة للفرد الثاني، وهذا يعني أن بصمة الأفراد في مجموعها مختلفة فلا يمكن أن تجد المكرر منها، وهذا يدل على وجود الخصوصية Particularity التي تميز الأفراد بما يمتاز به كل واحدٍ منهم، ولهذا لا يمكن أن تجد التماثل في القدرات والاستعدادات بين الأفراد»[17].

والإقرار بمسألة وجود الاختلافات قديمٌ قدم التاريخ. فها هو أفلاطون Plato يخبر أديمانتوسAbeimantus عن أنه ليس هناك من اثنين وقد ولدا وهما متماثلان تماماً، فنحن نمتلك استعدادات طبيعية مختلفة تجعلنا مناسبين للقيام بأعمال مختلفة[18].

إن الإشكالية لا تكمن في وجود الاختلافات ما دام وجودها أمراً محتماً وطبيعياً، وما دامت وسيلة لتعمير الكون وإصلاحه بما يمكن أن يضيفه كل فرد إليه، كلٌ حسب ما أوتي من استعدادات وقدرات وحسب ما زود به من طاقات فكرية وجسمانية تمكنه من أن يضيف شيئاً صغيراً كان أم كبيراً، لكن الإشكالية تبدأ لدى عدم تفهم الاختلافات وعدم الوعي بها، ولذا فنحن نتفق فيما يذهب إليه سيد الحسيني من أن «الاختلاف سنة طبيعية. وإذا ما التزم الناس بآدابه وأقروا بقوانينه، كان ظاهرة اجتماعية إيجابية، لأنه سيكون في سياق التكوين والخلقة والنشأة الأولى... المشكلة تبدأ فقط عندما يتحول هذا الاختلاف إلى نزاع وجدل وشقاق؛ فتذهب ريح الأفراد والجماعات والأقوام، وتفشل جهودهم ومساعيهم من أجل إعمار الأرض ومن عليها وما عليها، وتشيع

---

(17)عقيل حسين عقيل، الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد). فاليتا: منشوارت ELGA، الطبعة الأولى، 2001، ص 148.

(18) Plato, The Republic. (Transtlted by Desmond Lee), Penguin Classics, P.59.

الحروب والخرائب في ديارهم مما يمكن اعتباره تضاداً مع السيرة الطبيعية للنشأه الأولى، وتهديماً متعمداً لقانون الخلقة، أو محاولة يائسة لفرض إرادة ضعاف الكائنات على سيد الكائنات الذي لا نظير له ولا قادر مثله على فعل ما يريد» من هنا نقول إن العولمة تسير ضد القانون الطبيعي الأزلي للبشرية، وندعم هذا الرأي بقولنا: إذا كان العالم لغةً يشمل كل الخلق، والخلق بطبيعته التي فُطِر عليها مختلف ومتنوع، فنحن إذاً نقر بالاختلاف والتنوع ونعترف به ونتقبله بل نحترمه، فكيف يحدث أن نقر بالعولمة التي تريد أن تقضي على هذا الاختلاف وهذا التنوع وهي في سعي دؤوب للتوحيد والدمج؟ وفي ذلك يقول غريغوار مرشو»... إذا كنا نرى أن اتساق الكون واتحاد عناصره يعني بالضرورة اعترافاً بتنوع مكوناته وتنوع الثقافات، لا يلغي اتحاد الجماعة البشرية بل يعززها، فإننا نرى لدى الثقافة المهيمنة نزعةً إلى إجبار الآخرين على التطابق بغاية إلغاء الاختلافات»[19].

ثانياً ـ الكوننة/ الكونية:

تنحدر الكوننة (أو الكونية) من «الكون والكينونة بمعنى الحَدَث... وكوَّن الله الأشياء: أوجدها»[20]، وهذا يعني أن كل ما أوجده الله من أشياء هو كائنٌ أي موجودٌ في الكون.

فالكون إذاً هو اسم، ومنه أيضاً التكوين، أما الفعل فهو كوّن في الماضي وهو للشخص الذي كَوَّن فيما سبق من الزمان، أما تكَّون فهي تُقال للشيء الذي يتكوّنُ في الماضي بفعل مُكَوِّن، وتقول يكوِّن في المضارع، وكوِّن في صيغة الأمر، أي أحْدِثْهُ وأوْجِدْهُ، وهذا أمر بإحداث الشيء أو إيجاده من عدم، والفعل كُنْ ليس كالفعل كوِّن بالرغم من تشابه الفعلين في صيغة الأمر، فالفعل كوِّن يُؤمر بها من سيأخذ على عاتقه مهمة التكوين، أما كُنْ فهي تقال للشي. أو يؤمر

---

(19) المرجع السابق، ص 15.

(20) الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس. طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1983، ص 540.

لها الشيء الذي يُراد له أن يُوجد أو يُحدَث وذلك تصديقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[21].

والخلاصة أن تكوين الشيء مرادف لإيجاده لغةً، فإذا كان الشيء كائناً فذلك يعني أنه موجود بالضرورة سواءً استطعنا رؤيته بالعين أم لم نستطع، «فالموجود هو من / ما لم يكن في حاجةٍ إلى البرهنة على وجوده، والموجود هو الذي يحس بوجوده أو يحس الآخرون به»[22]. ، ولذا فمن وجد في الماضي وليس موجوداً الآن إنما يُعد موجوداً في الزمن الماضي، وهو قيد الإيجاد أو التكوين في المضارع (الآن)، وهو من سنَهُم بإيجاده في المستقبل.

هذا من الناحية اللغوية، لكننا في حاجة ماسة إلى التعرف على ما يعنيه هذا المصطلح من المناحي الجغرافية أيضاً، وبالبحث وجدنا أن الكون Universe هو «العالم بأسره بما فيه الأرض والكواكب والسيارات[23]، وبالرغم من استخدام مصطلح العالم كمرادف لمصطلح الكون، إلا أن كلمة (بأسره) توحي لنا هنا بأن الكون هو أشمل وأعم من العالم، فالكون يشمل العالم لكن العالم لا يشتمل على الكون، ولذا يمكن تعريف العالم بأنه كل ما هو موجود على سطح الكرة الأرضية سيانِ في ذلك اليابس والماء، العالم بهذا المعنى يشمل القارات الخمس المعروفة بما فيها من يابس وماء، أما الكون فهو يشمل كل ما أحدثة الله من يابس وماء وكواكب ونجوم وكل ما هو موجود سواءً استطعنا إحصاءه أو لم نستطع، وسواءً أحاطت به مداركنا العقلية أم عجزت عن احتوائه واستعيابه والتعرف عليه، فالكون هو الطبيعة وهو ما بعد الطبيعة، وعلى هذا نقول، إن وضع مصطلح الكوننة كمتشابه في الدلالة مع مصطلح العولمة غير صحيح، فهما لا يتماثلان لكنهما قد يتشابهان في أن كلاهما مسبوقان

---

(21) سورة يس، الآية: 81.

(22) عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي. فاليتا: منشورات ELGA، 1995، ص 14.

(23) بهجة المعرفة (موسوعة علمية مصغرة). المجموعة الأولى 2، الكون، (ترجمة عدد من الأساتذة العرب)، إشراف: الصادق النيهوم، طرابلس: الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ص 348.

بفعلين مُلزِمَين آمرين على وزن (فوعل) وكما أشرنا في البداية أن هذا الفعل يتم في ظروفٍ إجبارية لأنه فعلُ أمرٍ ملزم أو مجبر على القيام بالفعل، فإذا كانت العولمة تعني السيطرة على العالم، فإن الكوننة من هذا المنظور تعني السيطرة على الكون وتغيير وجهه،ولكن إذا كان الكون هو ما يشتمل على كل ما عرفنا ولم يتيسر لنا التعرف عليه بعد، فهل يكون جائزاً ومنطقياً أن يسيطر المرء على كل عناصر الكون المعروفة منها والمجهولة أيضاً؟ إن الكوننة ـ كما هي مطروحة ـ تعني احتواء كل شيء وبلورته من جديد، وجعل الكون يتسم بالدونية أمام غلبة الإنسان وذلك بأن يغدو موضوعاً للسيطرة على ما هو حاضر ومعلوم في الآن وعلى ما هو ليس حاضراً وليس معلوماً لأنه واقع في دائرة الغيب، لكننا بالمقابل نقول إنه إذا كان البشر قد تطورا في معارفهم وتقدموا في علومهم التي تمكنت من تجاوز كوكب الأرض إلى غيره من الكواكب الأخرى وتمكنوا من السيطرة عليها، إلا أنه ثمة أشياء كائنة لم يعرفوها بعد وقد لا يتمكنون من التعرف عليها بالرغم من كينونتها أي وجودها، ومهما ترقى الإنسان في مراتب العلم والمعرفة فسيظل هناك من هو أعلم منه وهو الله تعالى: ، خلق الكون بما فيه ، الذي يقول ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[24]، كذلك، فإذ كانت الشمس هي إحدى عناصر هذا الكون، فهل سيتمكن الإنسان من السيطرة عليها هي الأخرى؟

ويعّرف معجم أوكسفورد Oxford الكون بأنه الكل التام للخلق والخالق: «The whole creation and the Creator»[25] إلا أننا لا نعتقد بوجوب اشتمال الكون على الخالق، فإذا كان الكون يشتمل على كل المخلوقات، فكيف يكون خالقه مشمولاً مع ما خلق في آن واحد؟

أما معجم ويستر Webster فيعرف الكون بأنه كل الأشياء التي تم خلقها بما فيها الأرض والأجسام السماوية التي ينظر إليها على أنها متحدة لتشكّل نظاماً

---

(24) سورة يوسف، الآية: 76.

(25) Hornby, A.S. Oxford Advanced Learner Dictionary of Current English. Britain: Oxford University press, 25th ed, 1987, p.942.

واحداً أو كلاً كاملاً: «All created things including the earth and heavenly bodies viewed as making up one system»[26].

فعناصر الكون إذاً تتحد لتشكل نظاماً واحداً ومتسقاً بكل ما فيه، والكوننة بالمقابل تعني السيطرة على كل هذه العناصر، فإذا تمت هذه السيطرة على بعض هذه العناصر، وعجز الإنسان عن السيطرة على بعضها الآخر، فهل تكتمل السيطرة؟ بل هل تعد السيطرة سيطرة بالفعل بالسيطرة على بعض من كل بالرغم من أن هذا الكل لا يكتمل إلا بكافة عناصره سيما أنها تشكّل في مجموعها متحدةً نظاماً متسقاً ومتكاملاً؟

وإذا كانت العولمة توجب التفاعل الإنساني وتداخل البشرية بما يخلق نموذجاً للقرية الكونية الواحدة، فهل سيتحقق هذا التفاعل والتداخل مع عالم لم نعرفه أيضاً؟ وبالرغم من أن المعجم اللغوي (مختار القامرس) يجعل من تكوين الأشياء صفة لصيقة بالخالق، إلا أنها يمكن أن تكون للإنسان أيضاً، لكن ابتداء الأشياء وتكوينها وإيجادها يكون أولاً للخالق الموجد لكل شيء ثم يأتي بعد ذلك الإنسان الذي يمكن له أن يكوّن شيئاً.

ويتحدث غرايغوار منصور عن الكوننة أو الكونية بقوله... «إننا نرى في الثقافة ـ التي تريد لنفسها السيطرة ـ تطرح نفسها كونية، متجاوز خصوصية الآخرين ضمن منظور أحادي للكون»[27].

إذاً يقع التشابه بين العولمة والكوننة والكوكبة في أن كلاً منها هو على وزن (فوعلة)، وهو إحداث الشيء بطريقة قسرية بما يفقد الأصول ويحل محلها ما هو جديد وبعبارةٍ أخرى إلغاء الخصوصية، أما الاختلاف فهو في الموضع أو المجال الذي يتحقق فيه كلٌ منها، فحيث يكون الكون فثمة كوننة

---

(26) Webster's New English Dictionary. Pocket Edition. Beirut: Librairie Du Liban, 1982, p.564

(27) غريغوار منصور مرشو وسيد محمد صادق الحسيني، نحن والآخر. دمشق: دار الفكر ـ بيروت: دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، 2001، ص 15.

Universalism، وحيث يكون العالم (من منظور السيطرة وإلغاء الخصوصية) تكون العولمة Globalization، وحيث يكون العالم (من منظور الاعتراف بالخصوصية دون السيطرة) تكون العالمية World-wide.

ويُفهم من ذلك كوننة الشيء هي إيجاده ووضعه على مستوى الكون من خلال تفاعل الإنسانية كلها وتداخل شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعضها ببعض بما يخلق نموذجاً للقرية الكونية الواحدة التي تختفي معها سيادة وخصوصية المجتمعات.

ونخلص من ذلك إلى القول بأن العولمة شيء والكوننة شيءٌ آخر، وعلى هذا لا يصح استخدام المصطلحين كمترادفين أحدهما للآخر وذلك بالرغم من تشابهما جزئياً في الفعل الآمر الملزم بالقيام بالشيء.

ثالثاً ـ الكوكبة (الكوكبية):

ظهر مصطلح الكوكبة الذي أطلقه إسماعيل صبري[28] حيث عرَّفه بأنه «التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة دون اعتداد يُذكر بالدول ذات السيادة أو انتماء إلى وطن محدد أو دوله معينة، ودون حاجةٍ إلى إجراءات حكومية»[29]. إلاّ أننا وقبل الشروع في تحليل هذا التعريف ومحاولة استيعاب جزيئاته، فإننا سنقف قليلاً على الأصول اللغوية له، فأصل هذا المصطلح هو «الكوكب أي النجم وسيد القوم، وفارسهم. والكوكبة: الجماعة»[30]. وبذلك يكون الاسم هو كَوْكَبْ، أما الفعل فهو كوكَبَ (في الماضي) وهو على وزن فوعل، وعلى هذا يجوز القول بأنك قد تكوكب الشيء فيصبح كوكباً أو كوكبياً وهنا إما أن يكتسب الشيء صورة الكوكب فيصبح شبيهاً به أو مماثلاً له، وإما أن تعمم هذا الشيء وتجعله على مستوى الكوكب.

---

(28) مفكر اقتصادي من مصر.

(29) إسماعيل صبري عبد الله، (أبرز معالم الجدة في نهاية القرن العشرين)، مجلة عالم الفكر، المجلد 26، العددان 3، 4، 1998، ص 453.

(30) الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس. طرابلس: الدار العربية للكتاب، 1983، ص 540.

والكوكبة لغةً الجماعة وفيها إشارة إلى التجمع الذي يمكن أن يولّد التبادل والتفاعل بين سكان الكوكب ولكن ليس بالضرورة لأن كينونة الكوكبة (الجماعة) ليست مقترنة دائماً بحدوث التفاعل والتبادل بين أعضائها، فقد يحدث أن يجتمع عددٌ من الأفراد في مكان ما فيشكلوا جماعة دون أن يقوم بينهم أي نوعٍ من التفاعل بسبب اختلافهم على الموضوع، ولذلك «قد يلتقي الأفراد ولا يتم بينهم تفاعل، والسبب هو اختلافهم على الموضوع، والأفراد بدون موضوع لا خلاف بينهم»[31].

الكوكبة إذاًهي وضعُ الشيء على مستوى الكوكب، فإذا عرفنا أن الكواكب Planets جغرافياً هي «أجسام صغيرة معتمة لا تضيء بنفسها، وإنما تستمد نورها من الشمس، وهي.. تختلف عن بعضها في الحجم والكثافة والكتلة والبعد عن الشمس»[32]. ، والكواكب هي عطارد Mercury، والمريخ Mars، والزهرة Venus، والأرض Earth، والمشتري Jupiter، وزحل Saturn، وأورانوس Uranus، ونبتون Neptune، وبلوتو Pluto.

إذاً الأرض هي واحدة من مجموعة الكواكب السيّارة المشار إليها أعلاه، فإذا كنا نتحدث عن الكوكبة، فأي كوكب نعني؟ وأي كوكبٍ هو ذلك المخصوص بالسيطرة وتغيير المعالم ووضع الشيء على مستواه وتعميمه؟ فإذا كنا نقصد كلَّ الكواكب المذكورة فإن تحقق الكوكبة صعبٌ حالياً وذلك لما تمت الإشارة إليه مسبقاً من صعوبة السيطرة والتحكم في الأشياء التي ليس لنا بها علم، وإذا كنا نخص كوكب الأرض فحسب بعملية الكوكبة، فهنا يصبح من الأفضل الاستعاضة عن مصطلح الكوكبة بمصطلحٍ آخر هو (الأرضنة) بما يفيد السيطرة على الأرض وتغيير معالمها وفرض نظام جديد عليها.

بقي لنا أن نشير إلى عدد من المصطلحات الأخرى التي ظهرت مترافقة مع مصطلح العولمة وإن كنا نرى أنها لا زالت أكثر دقة وتحديداً من العولمة، فهناك

---

(31) عقيل حسين عقيل، المفاهيم العلمية (دراسة في فلسفة التحليل). طرابلس: دار الرّواد، 200و ص 41.

(32) جودة حسنين جودة، معالم سطح الأرض. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص 32.

على سبيل المثال مصطلح أمركة (Americanization (Americanism، وهو ما يفيد هيمنة النمط الأمريكي بكافة أبعاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتعميمه على شعوب العالم، وبالمثل فإنه يمكن لنا التحدث عن الأورَبة Europism وهذا في حال سيادة النمط الأوروبي، والعوربة Arabism لدى سيادة النمط العربي، وهلم جراً.